لمحات من منهج القرآن التعبيري

السيد محمد مصطفوي

قراءة في كتاب: **من أساليب التعبير القرآني**

دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني

تأليف: د. طالب محمد اسماعيل الزوبعي

يضم كتاب من «أساليب التعبير القرآني» تأليف أستاذ البلاغة والنقد في كلية الآداب والتربية–جامعة قاريونس د. طالب محمد اسماعيل الزوبعي القسم الأول من الدراسة التي أعدّها حول النص القرآني. الكتاب يتألف من٣٩٧ صفحة ضمن فصول ستة. واعتمد الباحث في دراسته هذه على استقراء مواضع كل أسلوب، واستقصاء تراكيبه، وتوزيع هذه المواضيع على أنماط وصور. كما سعى –قدر المستطاع– إلى تحليل البنية النصّية للشواهد الواردة لديه.

١- التضمين

لقد تناول الكاتب في الفصل الأول أسلوب «التضمين» وهو ميدان رحب تلتقي في ساحته علوم اللغة العربية وذلك في قسمين مستقلين، خصّص القسم الأول من الفصل الأول لبيان المعنى اللغوي والبلاغي للتضمين وأردفه بعرض بعض الملاحظات على ضوء الواقع اللغوي القرآني لبنية التضمين وأما في القسم الثاني من الفصل الأول نذكر المواضع الواردة من التضمين في الاستخدام القرآني حسب ترتيب السور في القرآن من جهة، وترتيب الأفعال (الألف بائي) من جهة ثانية.

أولاً: الجانب النظري

لقد أورد الباحث بصدد بيان معنى التضمين أقوالاً للغويين والبلاغيين بدءاً من ابن قتيبة(٢٧٦هـ.) حيث خصّص باباً في كتابيه «أدب الكاتب» و «تأويل مشكل القرآن» سماه «باب دخول بعض الصفات مكان بعض». والرماني(٣٨٦هـ) في «النكت في إعجاز القرآن» و أبو بكر الباقلاني(٣٨٨هـ.) في «إعجاز القرآن» حيث اعتبرا أن التضمين هو حصول معنى في الكلام من غير ذكر له باسم أو صفة هي عبارة عنه ويدل الكلام عليه دلالة إخبار أو دلالة قياس، ويقسم إلى قسمين: ما يفهم من البنية. وما يفهم من معنى العبارة. ومن ثم أورد رأي أبي هلال العسكري(٣٩٥هـ) حيث قصر التضمين على الشعر، وهو الرأي المعتمد لدى كل من ابن رشيق(٤٥٦هـ) ومحمد بن علي الجرجاني(٧٢٩هـ)، في حين ذهب ابن الأثير(٦٣٧هـ)، إلى أن التضمين لا يشمل الشعر والكلام المنثور فقط، وإنما يشمل – أيضاً– النص القرآني والأخبار النبوية. وميّز القزويني(٧٣٩هـ) بين «الاقتباس» و «التضمين» فذكر أن الأول: يخصّ القرآن والحديث. والثاني: يخصّ الشعر.

ويقترح الباحث تسمية «الدلالة النصّية للتضمين» بدل «التضمين» للتمييز بينها وبين «الدلالة العروضية للتضمين».

ودلالة التضمين في مجال النص تشمل الموارد الثلاثة التالية:

أ- الأسماء: وهو أن تُضَمِّن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الإسمين معاً: كقوله -تعالى: ﴿ **حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾[١]. فمن وجوه تفسير «حقيق» أن يضمَّن «حقيق» معنى «حريص» كأن النبي موسى(ع) يقول: «واجب عليّ قول الحق، وأنا حريص عليه»[٢].

ب- الحروف: وهو وقوع حرف موقع غيره من الحروف، من باب التوسع.

ج- الأفعال: بأن يتضمّن فعل معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس له من عادته أن يتعدى به، فيحتاج إلى تأويله أو تأويل الفعل ليصح تعدّيه به.

ويختم القسم الأول ببيان ملاحظات خمس، ففي الملاحظة الرابعة يذكر أن الدلالة النصّية للتضمين تشمل مسألتين لغويتين:

الأولى: نحوية: لأنها تتعلق ببنية النص(نقل الفعل إلى أكثر من درجة. وإتيان حرف يقبل الفعل بها التعدي).

الثانية: بلاغية: لأن التضمين: أ- **مجاز:** لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معاً، وأما الجمع بينهما فهو مجاز خاص يسمونه «التضمين».

ب- إيجاز: حيث أذكر فعلاً وأقصد معنى فعلين.

ثانياً: الجانب التطبيقي

وفي القسم الثاني من الفصل الأول يعرض الباحث لمواضع التضمين في القرآن الكريم. وذلك من خلال أنماط ثلاثة: ففي النمط الأول يعرض للأفعال المتعدية إلى مفعول به واحد بأسلوب التضمين. وفي النمط الثاني يعرض للأفعال المتعدية إلى مفعولين بالأسلوب نفسه، وفي النمط الثالث يعرض لما يقرب من التضمين في إيقاع فعل موقع فعل آخر. مثل إيقاع «الظن» موقع «اليقين».

١-١- أمثلة من النمط الأول:

١-١-١- قوله -تعالى-: ﴿ **وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ** ﴾[٣] جاء الفعل «تتلوا» متضمناً معنى «تفتري» أو «تكذب» فعدي بـ«على».

١-١-٢- قوله -تعالى-: ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ** ﴾[٤] حيث عديّ «الرفث» بـ«إلى» وأصله بـ«الباء» لتضمَّن لفظ «الرفث» (المصدر) معنى: الإفضاء، وهو يتعدى بـ«إلى» كما في قوله -تعالى-: ﴿ **وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ** ﴾[٥].

١-١-٣- قوله -تعالى-: ﴿ **وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ** ﴾[٦] حيث يتعدّى فعل «كفر» بواسطة «الباء» وضمّن هنا معنى «حرم» فتعدى بنفسه.

١-١-٤- قوله -تعالى-: ﴿ **وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ** ﴾[٧] تضمن الفعل «يكسبه» معنى «يجنيه» فتعدى إلى المفعول الثاني بـ«علي».

١-١-٥- قوله -تعالى-: ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾[٨] إن أصل الفعل (قفَّى) يتعدى إلى مفعولين صريحين. وفي النّص ضمّن معنى «جئنا».

١-٢- أمثلة من النمط الثاني:

١-٢-١- قوله -تعالى-: ﴿**أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ**﴾[٩] أجاز العكبري أن يكون قوله-تعالى: ﴿**مَا لَمْ نُمَكِّن**﴾ مفعولاً به ثانياً على تضمين الفعل معنى «أعطيناهم».

١-٢-٢- قوله -تعالى-: ﴿**ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ**﴾[١٠] ضمن ﴿**بدلنا**﴾ معنى «أعطينا» -حسب أبي حيان- فعدي إلى مفعولين «مكان» و «الحسنة».

١-٢-٣- قوله -تعالى-: ﴿**وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾[١١] حيث إنَّ الفعل «زوَّج» يتعدى إلى المفعولين بنفسه: ﴿**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾[١٢] وعُدِّي هنا بـ«الباء» لتضمينه معنى «قرناهم».

١-٣- مثال من النمط الثالث:

قوله -تعالى- ﴿**ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا**﴾[١٣]. لقد استخدم في هذه الآية «العلم» بمعنى «الرجحان» وهو القدر المشترك بين «الظن» و «العلم».

٢- الالتفات

يعد الالتفات من الأساليب المعتمدة في القرآن الكريم وله صور وأشكال، لقد عرض الباحث للجانب النظري والتطبيقي لهذا الأسلوب من خلال دراسة استقرائية.

أولاً: الجانب النظري

يعرض الباحث في المقدمة الجانب التاريخي للدراسات الأسلوبية في القرآن ومنها أسلوب الالتفات فيورد أن بعض أهل اللغة مثل أبي عبيدة(٢٠٨هـ)، وابن قتيبة(٢٧٦هـ). والمبرّد (٢٨٥هـ)، اكتفوا بالإشارة إليبعض تراكيب الالتفات القرآني بذكر شاهد أو شاهدين من النص القرآني. في حين أن البعض الآخر منهم مثل ابن المعتز(٢٩٦هـ)،

وقدامة بن جعفر(٣٣٧هـ) وابن وهب(٣٧٢هـ) وأسامة بن منقذ(٥٨٤هـ) والرازي(٦٠٦هـ) والسكاكي(٦٢٦هـ) وغيرهم أفردوا مبحثاً خاصاً حول الالتفات في مؤلفاتهم اللغوية.

ويشيد الباحث بالزركشي(٧٩٤هـ) وابتكاره أنماطاً جديدة لفن الالتفات. إلاّ أنه يسجل بأنه لم يفرد أحد من هؤلاء اللغويين بمن فيهم المحدثين مؤلفاً يتناول هذا الفن البلاغي الأصيل بالدراسة والتحليل واستقراء تراكيبه وأنماطه وأغراضه في النصوص الأدبية الشعرية والنثرية.

ومن ثم يتناول الباحث تحت عنوان: «مدخل إلى أسلوب الالتفات»، مفهوم الالتفات في اللغة وفي جهود البلاغيين. فيرى أن ما يفهم من كلام المفسرين واللغويين أن معنى «الالتفات» هو: العدول أو الصرف. وأن الالتفات في الكلام معناه الانصراف عنه إلى غيره.

ومن ثم يستند إلى كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(٣٩٥هـ)، ليستنتج أن عالم اللغة المعروف الأصمعي(٢١٦هـ) هو أول من

سمّى هذا الفن «التفاتاً». ويورد اصطلاحات مرادفة للالتفات لدى اللغويين مثل مصطلح «الصرف» عند ابن وهب(٣٢٧هـ) ومصطلح «الاعتراض» و «الاستدراك» عند ابن رشيق (٤٦٣هـ) ومصطلح «الانصراف» عند أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) ومصطلح «التلوين» عند كل من الثعلبي والقرطبي.

ويشير الباحث إلى جهود البلاغيين حول تحديد مفهوم الالتفات ويورد قائلاً: إن المتأمل للجهد البلاغي يجد أن أهل البلاغة لم يتفقوا على تحديد مفهوم البنية النصّية للالتفات، فقد ذكر جمهور البلاغيين أن شرط الالتفات أن يكون في جملتين، في حين أن بعضهم رد هذا الشرط مستندين إلى السياق القرآني، فقد وقع في القرآن مواضع للالتفات في كلام متصل، وينقل عن السكاكي أنه يعتبر أن الالتفات يتحقق في جملة واحدة. ويستنتج الباحث بأن أسلوب الالتفات عند جمهور البلاغيين هو الالتفات عند السكاكي وليس العكس.

ثانياً: الجانب التطبيقي

٢-١- الالتفات الضميري

٢-١-١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب

ولمثل هذا النمط موارد كثيرة في القرآن، منها: قوله –تعالى–: ﴿**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ * مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ حيث عُدِل من ضمير الغيبة في ﴿**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ إلى ضمير المخاطب ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وقد حقق ذلك أكثر من غرض بلاغي وأسلوبي ودلالي.

٢-١-٢- الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

مثال ذلك قوله –تعالى–: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء**﴾[١٤]. فقد عدل السياق من الغيبة «والله الذي أرسل الرياح» إلى أسلوب الخطاب: «**فسقناه**» فكان مقتضى الظاهر أن يكون القول «**فساقه**» لكن السياق آثر هذه البنية النصّية للالتفات، ليحقق بذلك إيقاظاً ولفتاً مناسباً لمقتضى المعنى.

٢-١-٣- العدول من الخطاب إلى الغيبة:

وذلك مثل قوله –تعالى–: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾[١٥].

حيث نرى في السياق الالتفات من الخطاب ﴿**قَالَتْ رَبِّ**﴾ إلى الغيبة ﴿**وَاللّهُ أَعْلَمُ**﴾ وقد جاء هذا الأسلوب إظهاراً لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذاراً إلى الله – تعالى– حيث أتت بمولود لا يصح لما نذرته من السدانة[١٦].

٢-١-٤- الالتفات من الخطاب إلى المتكلم:

مثل قوله –تعالى–: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا...**﴾[١٧]. حيث تغيّر السياق من الخطاب ﴿**فَاقْضِ**﴾ إلى المتكلم ﴿**إِنَّا آمَنَّا**﴾.

٢-١-٥- الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

وذلك في مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[١٨]. حيث نرى أن السياق انتقل من التكلم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ إلى الغيبة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.

٢-١-٦- الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

ومثال ذلك قوله -تعالى-: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١٩]. حيث التفت السياق من التكلم ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ﴾ إلى الخطاب ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٢-٢- الالتفات العددي:

٢-٢-١- الانتقال من خطاب المفرد إلى خطاب الاثنين:

ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢٠]. مقتضى السياق أن يقول: «يخرج منه» إلاّ أنّه عدل إلى أسلوب التثنية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وذلك لاعتبارات ورد التعرض إليها لدى المفسرين.

٢-٢-٢- الالتفات من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع:

وذلك مثل قوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾[٢١]. حيث قصد السياق من لفظة «الناس» في الموضع الأول خطاب المفرد كما هو رأي المفسرين أمثال الزمخشري وغيره. وقصد من لفظة «الناس» في الموضع الثاني خطاب الجمع.

٢-٢-٣- الالتفات من خطاب الإثنين إلى خطاب الواحد:

وذلك نحو قوله -تعالى-: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[٢٢]. فقد عدل في السياق من خطاب المثنى إلى خطاب أحدهما وهو النبي موسى(ع) ﴿يَا مُوسَى﴾.

٢-٢-٤- الالتفات من خطاب الاثنين إلى خطاب الجمع:

وذلك في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٣]. حيث انتقل السياق من خطاب الاثنين ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ إلى خطاب الجمع ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾. كما انتقل السياق ثانيةً من خطاب الجمع ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ﴾ إلى خطاب المفرد ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢-٢-٥- الالتفات من الجمع إلى الواحد:

وذلك في نحو قوله -تعالى-: ﴿هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ﴾[٢٤]. حيث انتقل السياق من خطاب الجمع «ضيوفي» -على مقتضى الظاهر- إلى خطاب المفرد ضيفي».

٢-٢-٦- الالتفات من الجمع إلى التثنية:

وذلك في مثل قوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[٢٥]. حيث عدل عن الجمع إلى التثنية «أخويكم».

ولقد تناول الباحث بعد بيان القسمين السابقين من الالتفات أساليب أخرى تحت عنوانين مستقلين:

أ- أساليب أخرى عند بعض علماء اللغة؛

ب- أساليب جديدة في فن الالتفات.

وقد ذكر تحت العنوان الأول صوراً عدة وهي: الالتفات في القرينة الإعرابية؛ الالتفات الإخباري؛ الالتفات من الإجمال إلى التفصيل (التوضيح)؛ وغيرها.

كما ذكر تحت العنوان الثاني صوراً عدّة مثل: العدول من معرفة إلى أخرى، العدول من صيغة إلى أخرى؛ والعدول من جملة إلى جملة أخرى.

٣- الاعتراض

يعد «الاعتراض» -أيضاً- من الأساليب التعبيرية المعتمدة في القرآن الكريم؛ حيث تجاوزت مواضع الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم -حسب الباحث- مائة وسبعين موضعاً. في حين أن النحاة والبلاغيين لم يولوا اهتماماً كبيراً بهذا الأسلوب، فلم يرد في كتاب سيبويه، ومقتضب المبرد حديث عن هذا الأسلوب. والنحاة المتأخرون اكتفوا بإشارات مقتضبة وهم يكررون في كلامهم أن (جملة الاعتراض لا محل لها من الإعراب) ما يوحي للدارس بأنّها جملة مهملة لو أسقطت لما أخلت بالمعنى المراد.

وأما البلاغيون فموقفهم من الاعتراض ليس أفضل حالاً من موقف النحاة، فقد عدّه كثير منهم من أنواع الاطناب، وذكروا بعض الأغراض البلاغية التي يحققها.

وأما المفسرون -وعلى رأسهم الزمخشري- ودارسي القرآن الكريم- وفي مقدمتهم الزركشي- فلهم جهود مثمرة حول هذه الظاهرة اللغوية.

ولقد تناول الباحث «الاعتراض» في مبحثين مستقلين: أ- مواضع وقوع جملة الاعتراض في التركيب القرآني. ب- الأثر البلاغي لأسلوب الاعتراض.

ففي المبحث الأول ذكر مواضع وقوع جملة الاعتراض في التركيب القرآني من خلال نمطين: الأول: المواضع التي جاء فيها الاعتراض جملة واحدة ولها صور عدة:

أ- بين الشرط وجوابه: مثل قوله -تعالى-: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ** ﴾(٢٦).

ب- بين القسم وجوابه: كقوله -تعالى-: ﴿ **فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ** ﴾(٢٧).

ج- بين المبتدأ والخبر: ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾(٢٨).

د- بين الفعل ومفعوله: كقوله -تعالى-: ﴿ **لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي** ﴾(٢٩).

هـ- بين الموصوف وصفاته: ومن ذلك قوله -تعالى-: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾(٣٠).

وكذلك الأمر بين المعطوف والمعطوف عليه، وبين أجزاء الجملة.

وأما النمط الثاني فيضمّ صوراً ثلاث وهي:

أ- الاعتراض بأكثر من جملة: وذلك مثل

قوله –تعالى–: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ** ﴾[٣١].

ب– الاعتراض بأكثر من جملتين: كقوله – تعالى–: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٣٢].

ج– وقوع الاعتراض في الاعتراض: كقوله –تعالى–: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ** ﴾[٣٣].

وفي المبحث الثاني تناول الباحث الأثر البلاغي لأسلوب الاعتراض وعدّ لذلك أسباباً مثل: تقرير الكلام وتقويته وتسديده؛ التنزيه؛ قصد التنبيه؛ الوعد والوعيد؛ والترغيب وغيرها. وختم الفصل الرابع بإيراد مواضع الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم.

٤- الحوار

لقد اعتمد القرآن الكريم الحوار أسلوباً في موارد كثيرة. وهذا الأسلوب تارةً حكاية مقولات القائلين ونقلها على ألسنتهم نقلاً طبيعياً تلقائياً، لا مبالغة فيه ولا افتعال. وأخرى يذهب الأسلوب الحواري القرآني كل مذهب بليغ، تتنوّع فيه الألوان والفنون حسب مقتضى الحال وداعية المقام. فقد يختصر الأحداث ويعرضها عرضاً سريعاً، وأحياناً يفصّل الأمر تفصيلاً حيث لا يكون غير الكلمة ما يغني غناءها ويسدّ مسدّها وفي ما بين الأمرين درجات متفاوتة.

كما أن الحوار القرآني تارةً حديث المرء لنفسه في صورة حوار أو مناجاة كما هو الحال مع النبي ابراهيم(ع)، وهو يحاور قومه[٣٤] وما جاء على لسان النبي موسى(ع) حيث تولى إلى الظل بعد أن سقى لابنتي شعيب(ع) في مدين[٣٥]، وأخرى يكون الحوار بين شخصين كما في حوار النبي إبراهيم مع آزر[٣٦] ومع قومه[٣٧]، وحوار النبي نوح مع ابنه[٣٨] ومع قومه[٣٩]. وحوار الإنسان والإنسان[٤٠] والإنسان والحيوان[٤١]. وثالثة يكون الحوار في القصص القرآني بين الله–تعالى– والأنبياء[٤٢] وبين الله والإنسان عامة[٤٣] وبين الله والملائكة[٤٤] وبين الله وإبليس[٤٥].

وللحوار القرآني في كل ذلك سمة خاصة وهي: «**تلك الذاتية التي يحتفظ بها هذا الحوار لشخصيات المتحاورين... ذلك أننا في القصص القرآني لا نجد فرصة أبداً نفلت من هذا الشعور الذي يستولي علينا من أننا إزاء شخصيات واقعية لها وجودها الذاتي، ولها منطقها وتفكيرها. ولها منزعها وإرادتها في الموقف الذي نقفه في الحدث، وفي الأسلوب الذي تعبر به عن موقفها**»[٤٦].

٥- المبنى للمجهول

ومن الأساليب التي كثر استخدامها في القرآن الكريم هو العدول إلى الفعل المبني للمجهول فهو ظاهرة أسلوبية مطردة. والأفعال المبنية للمجهول كثيرة جداً في القرآن الكريم. وقد أورد الباحث معجم الأفعال المبنية للمجهول في القرآن وأدرج فيه أكثر من سبعمائة موضع من استخدام أسلوب المبني

للمجهول في الآيات القرآنية.

وقد تعرّض الباحث تبعاً لأهل اللغة إلى بيان أغراض التعدية عن ذكر الفاعل، وحصرها في مجموعتين:

أ- الأغراض اللفظية وتشمل قصد الإيجاز، وإرادة السجع، وإقامة الوزن.

ب- الأغراض المعنوية وتضم موارد عدّة، مثل: العلم بالفاعل، الجهل بالفاعل، الإبهام، تعظيم الفاعل، تحقير الفاعل، الخوف من الفاعل، الخوف على الفاعل وقصد العموم.

٦- القيم الصوتية

لقد عقد الباحث الفصل السادس والأخير من الكتاب لبيان القيم الصوتية في الأسلوب القرآني. وأشار في هذا السياق إلى الجهد التاريخي للّغويين نحاتاً وبلاغيين في رصد هذه الظاهرة اللغوية بدءاً من «الخليل بن أحمد الفراهيدي»(١٧٥هـ)، حيث نقل عنه ابن جني(٣٩٢هـ.): «**إن هذا موضوع شريف لطيف، تقول العرب «صر الجندب» و «صرصر البازي» كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة، فقالوا: «صرّ صريراً» فمدوا، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر**»[٤٧]. ومثله «سيبويه» (١٨٠هـ.) في «الكتاب» في «باب وجوه القوافي في الإنشاد»[٤٨]. وابن جنّي حيث تحدّث عما سماه «الاشتقاق الكبير» في الفصل الثاني من مؤلفه: «الخصائص». ويرى أن مجرد الاشتراك في بعض الحروف يكفي أحياناً للاشتراك في الدلالة، ويوازن بهذا الصدد بين لفظي «دمث» و «دمثر» فالأولى: من دمث المكان، كفرح، وسهل، وفيه دماثة الخلق، أي: سهولته. والثانية: معناها السهل من الأرض والجمل الكثير اللحم[٤٩].

وأما البلاغيون فيتجلّى رأيهم في رأي شيخهم «عبد القادر الجرجاني»(٤٧١هـ) حيث أشار إلى التفاضل في تركيب الألفاظ بقوله: «**مما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر**»[٥٠]. كما تناول «الزمخشري» في كتابه «الكشاف» الموضوع في موارد عدة. ويلتقي العلماء المتأخرون والمحدثون بما رسمه القدامى من اشارات في هذا الميدان اللغوي الواسع ويؤكدون جميعاً على «**أن في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو الدلالي، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان وأن للموسيقى القرآنية إشعاع للنظم الخاص في كل موضع، وتابعة لقصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في كل الكلمة المفردة ولانسجام اللفظ في الفاصلة الواحدة**»[٥١].

ومن ثم يتناول الباحث موضوع القيم الصوتية في مبحثين متتالين: يتناول في المبحث الأول القيم الصوتية للفظة المفردة وذلك في دلالة الحركة ودلالة الصيغة، وتجانس القيم الصوتية للفظة ويتعرّض في المبحث الثاني للقيم الصوتية للفظة داخل التركيب. ويختم بذلك دراسته حول الأساليب التعبيرية في النّص القرآني.

ملاحظات ختامية

ومما سبق بيانه حول مضامين الكتاب يتضح مدى الجهد الذي بذله الباحث في جمع

المادة العلمية وتنسيقها وصياغتها ومن ثم إيراد أمثلة توضيحية حول مفرداتها. ولايسعنا إلاّ أن ننوِّه بأهمية البحث وجدّته وما اشتمل عليه من حسن التبويب والتنظيم ولكن ذلك كله لا يمنعنا عن إبداء بعض الملاحظات في الجانبين المضموني والفنّي تاركين الحكم بخصوصها إلى القراء الكرام، وسوف نقسم الملاحظات إلى قسمين رئيسيين: ملاحظات عامة وملاحظات تفصيلية:

أ- ملاحظات عامّة:

١- من ينظر إلى الخارطة العامة للدراسة، ويتأمل في الموضوعات المندرجة فيها قد يتبادر إلى ذهنه عدم الانسجام بين بعض العناوين؛ حيث إنّ البحث معقود أساساً لبيان أساليب التعبير القرآني. وحينما نتأمل في الفصول الستة نجد أن العناوين الثلاثة الأولى منسجمة انسجاماً تاماً مع عنوان الدراسة حيث إن «التضمين» و «الاعتراض» و «الالتفات» هي أساليب تعبيرية بكل معنى الكلمة وإن كانت الأساليب -هذه- غير مقتصرة على استخدام القرآن الكريم. على أن العناوين الثلاثة الباقية لا تنسجم كثيراً مع «الأساليب التعبيرية» وذلك انطلاقاً من أن «الحوار» ليس أسلوباً تعبيرياً بالأساس بالمفهوم السائد للأساليب السابقة، وإنّما هو أسلوب إقناعي-برهاني قبل أن يكون أسلوباً تعبيرياً -لغوياً وقرآنياً-. ثم إن الباحث ركّز على الجانب البلاغي لهذا الأسلوب ما أخرجه عن طابعه التعبيري الخطابي.

وأما أسلوب المبني للمجهول فليس أسلوباً -بالمفهوم الدارج للأسلوب في الدراسات اللغوية وإنّما هو طريقة نحوية-قواعدية في اللغة العربية. وأما القيم الصوتية فهي خارجة كلياً عن أسلوب التعبير.

٢- كان ينبغي للباحث أن يركِّز على الخصوصية القرآنية في الأساليب التي تناولها. ويميِّز بين الاستخدام القرآني والاستخدام اللغوي لتلك الأساليب، ولا نجد في الدراسة أية إشارة إلى الموضوع لا من قريب ولا من بعيد. وهذه المقارنة تعطي قيمة كبيرة للدراسة حيث إنّها تكشف عن الخصوصية القرآنية في التعبير وتبيّن دور القرآن في إغناء اللغة العربية.

٣- الدراسة -بشكل عام- تخلو من مساهمة جديدة من قبل الباحث، وتقتصر على السرد والشرح، ما عدا موارد قليلة؛ حيث بادر الباحث إلى إبداء بعض الاقتراحات أو بعض الاستنتاجات مثل اقتراح تسمية «التضمين» بـ«الدلالة النصية للتضمين» للتمييز بينها وبين الدلالة العروضية للتضمين. أو استنتاج الباحث بأن «أسلوب الالتفات» عند جمهور البلاغيين هو الالتفات باصطلاح السكاكي لا غير وهكذا.

٤- إن الأمثلة الواردة لدى الباحث ليست كلها بدرجة واحدة من حيث القيمة والاعتبار، ففي حين أورد الباحث أمثلة متفقاً عليها بين اللغويين والمفسرين للأساليب التعبيرية، فإنه قد بادر إلى ذكر أمثلة شاذة وغير مقبولة لدى أغلب المفسرين. ما أدى إلى أن يفقد الجانب التطبيقي للدراسة قيمته العلمية واللغوية.

ب- ملاحظات تفصيلية:

أولاً: ملاحظات شكلية -فنية:

١- بدأ الباحث الإهداء وهو صفحة واحدة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» ومن ثم بدأ المقدمة بالبسملة أيضاً. ثم شرع في الفصل الأول من دون البسملة في حين أورد الأمثلة (الجانب التطبيقي) مبتدئاً بالبسملة وهكذا. وإن كان الإتيان بالبسملة هو أمر طيب في كل حال إلاّ أن القارئ قد يشعر بعدم التواصل بين الأجزاء إذا تكرر الإتيان بها ضمن كتاب واحد فكيف إذا كان الأمر في فصلٍ واحد.

٢- إن الباحث الكريم أورد الأمثلة التطبيقية لأسلوب التضمين مترتباً حسب السور القرآنية وجعل أسماء السور عنواناً للأمثلة. في حين أنّه لم يراع الأمر في باقي الأساليب من الالتفات إلى الحوار. نعم قد تدارك الأمر في أسلوب الالتفات والاعتراض بإضافة جدول في آخر الدراستين.

٣- لقد عنون الباحث المبحث الأول من الالتفات بعنوان: الالتفات الضميري، والمبحث الثاني بعنوان: الالتفات العددي. بينما عنون المبحث الثالث بعنوان: أساليب أخرى، والمبحث الرابع بعنوان: أساليب جديدة. وكان من الأفضل أن يبدل العنوانين الأخيرين بعناوين معبرة أكثر دون أن يلجأ إلى عناوين إطارية عامة.

ثانياً: ملاحظات مضمونية -علمية:

١- المصادر والمراجع:

اختلفت المصادر المستخدمة لدى الباحث في الفصول الستة لجهة الكم والنوع أو لجهة القيمة العلمية وتعدادها. فمثلاً أورد الباحث للفصل الأول وموضوعه: أسلوب التضمين ثمانية عشر مصدراً وكلها مصادر قديمة موضوعها التفسير وعلوم القرآن والبلاغة والنحو ولا يوجد فيها مرجع واحد معني بشكل مباشر بموضوع التضمين في حين أن هناك العديد من المراجع الجديدة التي اعتنت بالموضوع وأشار الباحث إلى بعضها في المقدمة.

وتكرر الأمر مع الباحث بخصوص موضوع الالتفات حيث أورد ثمانية وثلاثين مصدراً يدور موضوعها بين التفسير وعلوم القرآن واللغة وآدابها وخلت عن المراجع الحديثة باستثناء دراستين أوردهما الباحث تحت عنوان: مصادر أخرى وهي معنية بأسلوب الالتفات -بشكل خاص- وهكذا الأمر بالنسبة إلى أسلوب الاعتراض والحوار والمبنيّ للمجهول.

وأما المصادر التي أوردها الباحث في الفصل الأخير الذي عقده لدراسة القيم الصوتية في الأسلوب القرآني فهي أجنبية عن الموضوع بشكل تام؛ حيث إن موضوعها يدور بين التفسير وعلوم القرآن والبلاغة والنحو ولا توجد فيها دراسة واحدة بخصوص القيم الصوتية.

٢- الأفكار:

بدءاً من موضوع «أسلوب التضمين» إلى «القيم الصوتية» اقتصر الباحث الكريم على إيراد آراء متعددة في التعريف والأنواع والأحكام من دون أن يتنبى بشكل صريح رأياً

من الآراء أو يقترح رأياً جديداً فلا يظهر للقارئ أن الباحث –مثلاً– يتبنى رأى نحاة بصريين في موضوع التضمين، أو رأي الزمخشري، أو غيرهما، وهكذا الأمر في باقي التعريفات والموضوعات، كما أن الباحث الكريم لا يبدي رأياً خاصاً منه بخصوص المواضيع المطروحة. وكان ينبغي أن يعلّق على التعريفات والتفسيرات ويتبنى رأياً معتمداً على اعتبارات واضحة.

٣- الاستنتاجات:

خَلَتْ بعض الاستنتاجات عن الوضوح لجهة المنطلقات والاعتبارات ما أدى إلى عدم وضوع المسائل فمثلاً في الصفحة ١٩ يعتبر الباحث وبالاستناد إلى «الزمخشري» في «الكشاف» أن رأي جمهور البلاغيين هو أن شرط الالتفات أن يكون في جملتين. وبعد صفحة واحدة يقرر الباحث أن أسلوب الالتفات عند جمهور البلاغيين هو الالتفات عند السكاكي الذي يرى أنّ الالتفات يتحقق في جملة واحدة، ولا يبرز دليلاً على رأيه ولا يسنده إلى مرجع، وهكذا الأمر في الصفحة ٨٠٢ و ٩٠٢، وغيرها.

الهوامش

(١) سورة الأعراف: الآية ١٠٥.
(٢) ابن هشام: مغني اللبيب، ج٢، ص٦٨٥.
(٣) سورة البقرة: الآية١٠٢.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٨٧.
(٥) سورة النساء: الآية ٢١.
(٦) سورة آل عمران: الآية١١٥.
(٧) سورة النساء: الآية ١١١.
(٨) سورة المائدة: الآية٤٦.
(٩) سورة الأنعام: الآية ٦.
(١٠) سورة الأعراف: الآية ٩٥.
(١١) سورة الدخان: الاية٥٤.
(١٢) سورة الأحزاب: الآية٣٧.
(١٣) سورة يوسف: الاية ٨١.
(١٤) سورة الأعراف: الآية٥٧.
(١٥) سورة آل عمران: الآية٣٦.
(١٦) تفسير أبي السعود، ج٨، ص١٥٩.
(١٧) سورة طه: الآيات٧٢-٧٣.
(١٨) سورة الكوثر: الآيات ١-٢.
(١٩) سورة يس: الآيات ٢٠-٢٢.
(٢٠) سورة الرحمن: الآيات ٢٢-٢٣.
(٢١) سورة آل عمران: الآية١٧٣.
(٢٢) سورة طه: الآية ٤٩.
(٢٣) سورة يونس: الآية٨٧.
(٢٤) سورة الحجر: الآية ٦٨.
(٢٥) سورة الحجرات: الآية١٠.
(٢٦) سورة النحل: الآية ١٠١.
(٢٧) سورة ص: الآيات ٨٤-٨٥.
(٢٨) سورة الأعراف: الآية ٤٢.
(٢٩) سورة النساء: الآية ٧٣.
(٣٠) سورة الواقعة: الآيات٧٥-٧٧.
(٣١) سورة لقمان: الآية١٤.
(٣٢) سورة هود: الآية ٤٤.
(٣٣) سورة الواقعة: الآيات ٧٥-٧٧.
(٣٤) سورة الأنبياء: الآية٥٧.
(٣٥) سورة القصص: الآية ٢٤.

(٣٦) سورة مريم: الآيات ٤١-٤٥.
(٣٧) سورة الشعراء: الآيات٦٩-٨٢.
(٣٨) سورة هود: الآيات ٤١-٤٣.
(٣٩) سورة هود: الآية٣٢.
(٤٠) سورة الكهف: الآيات٣٤-٣٨.
(٤١) سورة النمل: الآيات ٢٠-٢٨.
(٤٢) سورة البقرة: الآيات٢٤-٣٢.
(٤٣) سورة الأعراف: الآيات١٠-١٧.
(٤٤) سورة ص: الآيات ٢٠-٢٣.
(٤٥) سورة الأعراف: الآية ١١.
(٤٦) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطقه ومفهومه، ط١، ١٩٦٤، ص١٣٣.
(٤٧) ابن جنّي: الخصائص، ج٤، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة، بيروت، ص١٥٤.
(٤٨) سيبويه: الكتاب، ج٤، تحقيق: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية، ١٩٧٧، ص ٢٠٤-٢١٢.
(٤٩) الخصائص(ن.م.)، ص ١٣٥.
(٥٠) الجرجاني: دلائل الاعجاز، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، ١٩٧٦، ص٩٤.
(٥١) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤، ص٣٨٥.